المحطة السادسة في حياة الأب المؤسس الخوري أنطون زبوني
حلمٌ وبذرةٌ رهبانية في وسط العواصف
"فلِذلكَ ارتَعَشَ قَلْبي ووثَبَ مِن مَكانه" أيوب 37/ 1

كانت الحرب العالمية لا تزال قائمة، وقد أثرت على شعبنا إنسانياً واجتماعياً واقتصادياً في سائر طبقاته وبصورة خاصة على النساء والشابات النازحات من القرى إلى بغداد، فالقادمون من الشمال كانوا يعيشون في بيوت صغيرة ورطبة لا يدخل الهواء إليها ولا الشمس، وقد استأجروها ونزلوا فيها أكثر من عائلة في البيت الواحد، فيمكننا التصور كيف كانت حياة هؤلاء الناس الفقراء اجتماعياً واخلاقياً من جراء هذا التعايش وهذا الإختلاط.

كانت الفتيات يعملن من أجل كسب لقمة العيش في أي عمل يُعرَض عليهن وخاصةً كخادمات في البيوت، والناس أنواع وأجناس: فبعضهم شريف كريم يساعد الخادمات ويحترم شخصيتهن ويرثي لحالتهن الإجتماعية، والبعض –للأسف– دنئ واطئ يحاول إيقاع الفتيات وإغواءهن. وكم من فتاة ضاعت في متاهات الحياة في بغداد، أخلاقياً وروحياً، أو زاغت عن الطريق السوي دينياً.

يكتب الأب أنطون في إحدى رسائله بتاريخ 16/ تشرين الثاني/ 1922: ***"هذه الضرورة أولدت فيَ منذ سنين رغبة حارة للبدء بكذا مشروع – مشروع إقامة رهبنة نسائية– لقد تأملت كثيراً بهذه الأمنية أمام القربان الأقدس مستشيراً يسوع".***

هذه الحالة الصعبة والمزرية التي كان الآباء الكهنة يلاحظونها في جماعتهم كانت تحزُّ في نفوسهم جداً. وفي كثير من الحالات كانوا يسمعون بها بعد فوات الأوان فكانوا يتألمون لحدوثها. ولكن ما العمل والجماعة في ازدياد مطرد، والضرورة الملحة للحياة تجبر العوائل على العمل المستمر وبأي عمل كان.

يكتب الأب أنطون أيضاً: "... ***إن هذه الحرب اللعينة أثارت في النفوس روحاً جديدة هي بالأحرى روحاً شريرة، وأفكاراً خاطئة لميول خطيرة، وتياراً جديداً من الحرية الزائفة، وأهواءًا مخيفة، ولا مبالاة نحو الديانة بلا حياء، فكثرت السقطات بين الجنس الضعيف نظراً إلى أنَّ الكاهن لا يستطيع بسهولة الإهتمام بهنَّ بذاته***".

كان الأب أنطون يراقب هذه الأمور ويتألم بصمت "فمن يضعف وأنا لا أضعف معه، ومن يقع في الخطيئة وأنا لا أحترق من الحزن عليه" (2 قورنثس 11/ 29). لم يكن يعلم في أول الأمر ماذا عليه أن يفعل وكيف يتصرف. ولذلك كان يهرع إلى الكنيسة للإختلاء والتأمل واستمداد أنوار الروح القدس، فنمت عنده مع الأيام فكرة تأسيس جمعية أو رهبنة نسائية. فيكتب في الرسالة نفسها: "... ***منذ سنوات تكوَّنت لديَّ القناعة بأننا بحاجة ماسة إلى رهبنة للبنات المكرسات لله... وتضاعفت لديَّ هذه القناعة بعد أن أصبحتُ في خدمة النفوس إذ فهمتُ بالواقع كم من الخير تستطيع مثل هولاء البنات (الراهبات) عمله، إذ يصبحن مساعدات للإكليروس في التربية... كإقامة الأخويات والمياتم والتعليم الديني للعاملات والفتيات اللواتي لا يستطعن الدوام في المدارس الكاثوليكية، والإعداد للتناول الأول ورعاية الرياضات الروحية، ونظافة الكنائس والزينات الكنسية، والإهتمام بالمرضى والمدنفين والأعمال الخيرية في المستشفيات... وبإمكاننا ذكر النشاطات الرسولية التي تستطيع راهبات المستقبل الإشتراك بها***...".

في الأمسيات عندما كان الكهنة يجتمعون سوية طلباً للراحة ولتبادل الأفكار والأخبار والإستعداد ليوم جديد، طرح القس أنطون فكرته هذه على إخوته الكهنة فحبَّذوها وصفَّقوا لها، وكان أول المؤيدين لها القس فيليبس شوريز الذي ألحَّ على البدء بها بعد طرحها على السيد البطريرك لنيل التأييد والبركة. لكن الظروف الإجتماعية العامة حالت دون البدء بالمشروع في سنوات الحرب الأخيرة.

كان أبونا أنطون على اتصال بجماعة بغداد لأنه كان مفوضاً رسمياً لخدمتها، وكان يزور الجماعة ويلتقس بالعوائل، فوجد أثناء زياراته عدداً حسناً من الشابات العابدات المتمرسات على خشية الله اللواتي كن يتواجدن في الكنيسة باستمرار ويحضرن المراسيم الدينية ويساعدن الكاهن في خدمته. بهذا المعنى يكتب هو نفسه إلى البطريرك يقول: "... ***كان هناك عدد من النساء الرصينات التقيات اللواتي كن يحببن البتولية وخدمة بنات جنسهن، وكنَّ يشاطرنني الفكرة***...".

كانت المراسلات بين بغداد والموصل حيث مقر البطريركية مقطوعة أو شبه مقطوعة في سنوات الحرب، رسائل قليلة جرى تبادلها بين الجهتين. وعندما كتب الأب أنطون إلى البطريرك مقترحاً الفكرة وافق عليها غبطته، لا بل يكتب الأب أنطون زبوني بهذا الصدد وهو يخاطب البطريرك بعد سنوات: "... ***ولقد صارحتك مراراً كما تتذكر يا سيدي وكم من مرة صفَّقتَ للفكرة، لكنك قلتَ: ترَيَّثوا إلى وقت أكثر نضوجاً***..."

ووضعت الحرب العالمية أوزارها، وأصبحت المراسلات بين مدن العراق ممكنة وكذلك الأسفار، وكان البطريرك مشتاقاً كل الشوق لرؤية شعبه في كل أرجاء العراق لا بل في كل مكان بعد أن مرَّ بسنوات مريرة من الألم والجوع والتشرد والإضطهاد. فاستعد غبطته للسفر إلى بغداد، ووصل لبغداد، فاجتمع بالكهنة وأصغى اليهم مطولاً. ثم طرح القس أنطون زبوني فكرة تأسيس رهبنة نسائية كلدانية وبيّن ضرورتها وعن الميادين التي ستعمل بها. وانضمَّ الوكيل البطريركي القس فيليبس شوريز إلى زميله مؤيداً الفكرة بكل حرارة، وهكذا فعل الكهنة الآخرون، بينما كان البطريرك يهزُّ رأسه استحساناً.

كان البطريرك يُنصت بكل جوارحه إلى هذا الإقتراح الذي طرحه القس أنطون بحماس واندفاع، وفرح غبطته لإهتمام كهنته بشعب الله وببعد نظرهم وتحسُّسهم لمعاناة المؤمنين، فبارك الفكرة، لكنه طلب منهم التريث لأنه هم وشعبه خرجوا تواً من الحرب، فالفقر والفاقة متفشية في كل مكان، لا بل غبطته نفسه كان في ذلك الحين لا يملك شيئاً فقد باع أغراض البطريركية من ذهب وفضة لمساعدة المحتاجين وإطعام الجياع... وفي 15 تشرين الأول 1919 ترك غبطته بغداد.

في عيد الميلاد لعام 1921، قرر غبطته الإحتفال بالعيد مع الرعية في بغداد. وحين تواجد غبطته في بغداد عرض عليه الخوارنة أكثر من مرة مسألة فتح رهبنة كلدانية في بغداد لكثرة الطلبات والحاحاتهنَّ. ولما كان الأمر ذي أهمية عظيمة أخذ غبطته يفكر طويلاً في المسألة. وبعد الأخذ والرد طلب أنوار الروح القدس بشفاعة العذراء. وافق غبطته أخيراً على فتح الرهبنة وخصَّص دار داؤد مسيح التي كانت كنيسة بغداد قد اشترته حديثاً. ففتح دير الراهبات بنات مريم المحبول بها بلا دنس...

عندما طرح الأب أنطون زبوني فكرة تأسيس رهبة نسائية تخوَّف غبطته للوهلة الأولى، "**وأخذ يفكر طويلاً**" حسب تعبيره سكرتيره، ولم يُرد أن يبدأ بمشروع على جانب كبير من الأهمية فيناله العطب أو الفشل بعد زمان. لقد أراد تأسيس الرهبنة على أساس قوي تقاوم الظروف ولا تتهاوى أمام الأمطار والسيول والرياح على حد تعبير يسوع المسيح (متى 7/ 24).

وأعاد الأب أنطون طلبه بإلحاح، وهكذا نقرأ في إحدى رسائله إذ يكتب: "***هذه الإعتبارات حدت بي وبآخرين من الإكليروس أن أعيد طلبي، وأن أُلِحَّ فيه عند غبطتكم للإسراع إلى تطبيقه لأن الظروف تفرضه...***" ويكمل: "***عندئذ دعوتموني إلى الموصل من أَجل دراسته بعمق...***".

ذهب الأب أنطون إلى الموصل واختلى في البطريركية بأسقفين وعلى الأغلب هما المطران طيمثاوس مقدسي (زاخو) وفرنسيس داؤد (العمادية وأرادن). فقد كانا في الموصل في تلك الأيام ضمن لجنة الحوار مع النساطرة. وطرح القس أنطون الفكرة عليهما وبيّن أهميتها وضرورتها وتحدث عن استعداد البنات في بغداد لإعتناقها وما إلى ذلك فاستحسنا الفكرة وشجعاه ووعداهُ أن يقفا إلى جانبه أمام سيدنا، فنراه يكتب: "... ***وكان في الموصل عند ذلك أسقفان كلدانيان، فبعد دراسة المشروع بعمق وإذ أطّلعا على حراجة الأوضاع فإن الأسقفين لم يترددا عن الموافقة عليه وتقديمه إلى غبطتكم كوسيلة ضرورية لمحاربة الشر الذي كان ينشر الخراب بين الفتيات والنساء المسكينات***..".

دخل الأسقفان الجليلان إلى غرفة سيدنا يراقفهما الخوري أنطون زبون لأنه في تلك الأيام نال هذه الرتبة. فاستقبلهم غبطته وسمع إليهم بتأن فاقتنع بضرورة الإسراع إلى تحقيقها لأنه منذ زمان كان هو نفسه يفكر بها كما نقرأ في رسالة إلى الكردينال سكرتير مجمع الكنائس الشرقية في 20 حزيران 1922 أي قبل تأسيس الرهبنة بقليل حيث طرح الفكرة مبيناً: ***إننا نشعر بالضرورة القصوى لتأسيس جمعية محلية من البنات التقيات***..." ويكمل الخوري أنطون في الرسالة السابقة فيقول: "***وأنت يا سيدي إذ رأيت من جهة، الحالة الدينية بخطر، ومن جهة أخرى إلحاح الأساقفة والكهنة والعلمانيين الأتقياء الرجال منهم والنساء على السواء، أذنتَ لي أخيراً أن أبدأ تدريجياً وبهدوء وحذر كبير***...".

هذه الرسالة مهمة جداً، وكل كلمة فيها جديرة بالدراسة والإهتمام لأنها تتطرق إلى:

1. الحياة الاجتماعية والدينية في بغداد إنها بخطر؛
2. إتفاق الأساقفة والكهنة على ضرورة المشروع؛
3. إطلاع العلمانيين من الرجال والنساء ورغبتهم لتحقيقه.

نلاحظ أيضاً أنّ البطريرك عند قبوله الفكرة كان حذراً جداً فأوصى بالبدء بالمشروع تدريجياً وبهدوء وحذر كبير. ولأن المشاريع مهما كانت صغيرة أم كبيرة لا تتحقق بالنيات الطيبة فحسب، بل تحتاج إلى دعم مالي، فإنَّ البطريرك قدَّم للخوري مبلغاً من المال إذ يكتب الخوري في الرسالة نفسها: "ثم أعطيتني ألف روبية للإنطلاق" واللطيف في الأمر أن البطريرك أعطى المبلغ قبل أن يطلب الخوري مساعدة، وهذا يشير إلى اقتناعه بضرورة المشروع.

نتوقف بعد هذا العرض التاريخي لبوادر نشأة الرهبانية التي أطلقها الأب الخوري أنطون زبوني لنرى كم فكرَّ هذا الكاهن الورع ورغِبَ بشدة في نشأة رهبانية نسائية وتأملها واختلى مصلياً كي يميز إرادة فيسعى لتحقيقها، وكم سعى لأجل أن يتحقق مشروع الله هذا في أرضٍ عطشة للمسة خلاصية من الله. أن غيرة الله المقدسة في حياته كانت مصحوبة دائماً بفضيلة الرحمة والتقوى تجاه معاناة وصعوبات وضعف الآخرين، كان همه الأكبر هو خلاص النفوس. يقول القديس غريغوريوس الكبير: ليس هناك تضحية مقبولة من الله القدير كالغيرة على النفوس. وهذا ما أكده القديس يوحنا الذهبي الفم، الذي يضيف أن خلاص الروح له ميزة أعظم من امتلاك نعمة عمل المعجزات على الأرض، وبالتالي يضمن خلاصه وخلاص أخيه. لهذا قال القديس يعقوب في رسالته: "فاعلَموا أَنَّ مَن رَدَّ خاطِئًا عن طريقِ ضلالِه خَلَّصَ نَفْسَه مِنَ المَوت وسَتَرَ كَثيرًا مِنَ الخَطايا" (يعقوب 5/ 20).

سار الأب أنطون زبوني إلى الأمام لتحقيق حلم الله في حياته لتأسيس رهبانية ولم يختبئ خلف حياة هادئة، لكن كانت غيرته الرسولية تدفعه إلى الأمام، لا يكل ولا يتراجع، فهذه الغيرة على مجد الله وخلاص النفوس مثلما جاء في الكتاب المقدس (مزمور 68/10- يوحنا 17/2) كانت، "تلتهمه وتنسيه نفسه وجميع الأشياء الأرضية، دافعة إياه إلى أن يكرّس ذاته لمهمته السامية، متذرّعًا دائمًا بأنجع الوسائل لتتميم واجبات هذه المهمة على نوع أفضل إتقانًا وأوسع نطاقًا". (البابا بيوس الثاني عشر).

ويضيف البابا بقوله: يجب أن يكون لهيب الغيرة الرسولية هذه من أسطع الأشعة التي يتلألأ بها جبين كل كاهن وأن يكون على أهبة دائمة للانطلاق لدى نداء القائد الأعلى إلى شتى الجبهات في ساحة القتال الفسيحة الأرجاء وفيها تدور رحى المعارك السلمية بين الحقيقة والضلال، بين النور والظلام، بين مملكة الله ومملكة الشيطان.